إنتقام من الحياة

زهيرة البيلى

رجل قصير، لكن شكله مميز. جبهة عريضة وشعر أسود متموج، ويتمتع بنظرات عميقة، دخل عند بائع الدواجن، ووقف فى نهاية الطابور. وقد وضع على عينيه نظارة ذهبية جعلت منه مهندسا فنانا هاويا. وأخذ الرجل يتأمل عاملة الخزانة وقد بدت عليها السعادة. فقد كان اليوم ٢٥ ديسمبر عام ١٩٥٠ من أيام الأعياد التى تنشط فيها عملية البيع.

ولاحظ الرجل أن المرأة على الخزانة تتأمل النقود بكل دقة. ثم تعيد الباقى. وعندما جاء دوره بدا شاحبا، وبصوت مرتعش اشترى اوزة لأسرته. اوزة سمينة للأعياد. كان يبلغ ثمنها فى ذلك الوقت ٢٠٠ فرنك. وبدون أن يشعر وضع النقود على الخزانة. ورقة زرقاء من فئة الألف فرنك. وبعد أن أعادت اليه المرأة باقى النقود. اخذ يخطوات مرتعشة ناحية محطة المترو. ثم جلس فى المترو والاوزة على ركبتيه. فعادت الدماء ثانية إلى وجهه. واسترخى من جديد.

وبعد ساعة وصل الرجل إلى بيته، حيث يقطن فى فيلا متواضعة، لكن أنيقة، تقع بضاحية بالقرب من باريس. وأغلقت زوجته على نفسها المطبخ وبصحبتها الاوزة. أما أطفاله الذين تتراوح أعمارهم بين ستين وأربع سنوات، فكانوا يلعبون داخل حجرتهم. وجلس الرجل بمفرده ليسترد أنفاسه. فقد تملكته أحاسيس من الصعب تحليلها، فهى فى خيط من القلق والرضا، الفخر والفشل، السعادة والحزن. وبقى سؤال: هل يأتى البوليس؟ وجلس الرجل ينتظر، وطال انتظاره إلى سنوات.

ولد الرجل فى عام ١٩٢١ من أصل بولندى، وعمل ضابطا بالقوات المسلحة الألمانية فى عام ١٩٣٩. وبناء على طلبه ذهب للخدمة فى «مرسيليا» فى عام ١٩٤٤.

وهو حاصل على دبلوم الهندسة المعمارية، الا أنه لم يفده بشئ، لأنه لا يتقن اللغة الفرنسية، واستفاد الرجل بزواجه من ابنه محام ثرى معروف، ولكن لن تقبله عائلة الزوجة، لأنه لم يحقق المكاسب المادية لأسرته. ربما أنه من ذلك الطراز الذى لا يستطيع الفشل أو السرقة للحصول على المال. فلم يبق أمامه سوى حل واحد: تزييف النقود. معنى هذا أن العملة التى دفعها لأوزة الأعياد، كانت مزيفة.

ولم تكن مزيفة فقط، بل كان الرجل يصنعها بنفسه من أولها لآخرها: الورق والرسم والطبع، دون أن يستعين بأحد.

وكان نجاحا باهرا جعل الرجل بالرغم من كل شئ يشعر بالعزة والفخر. ومنذ عدة أيام جلس ينتظر البوليس، ولكنه لا يأتى، وكان لا يحتفظ بكميات الأوراق الزرقاء دون إنفاقها، فحتى الاحتياطى كان يقلقه على الفور.

وكان الرجل على علم بأنه لاكتشاف هذه النقود المزيفة لابد من إحصائى. ويعرف أيضا أن هذه النقود المزيفة بها بعض الأخطاء، فرقم المجموعة يتكرر، وكل النماذج التى قام بتزييفها تحمل نفس الرقم المسلسل. لذلك كان حريصا على إنفاق هذه النقود فى أماكن متفرقة. كان هذا هو المبدأ، أو بالأحرى هى القاعدة الذهبية التى اتبعها واحترمها وكانت حظه فيما بعد بسيطة للغاية، اذ يقوم بشراء أشياء صغيرة ثم يسترد مائتى من النقود، وهذه الأشياء لا يأتى بها للمنزل، بل يتخلص منها أولا بأول.

وبالنقود الباقية يشترى شهادات استثمار من مكاتب البريد. لم يغير الرجل شيئا فى أسلوب حياته، بل كان ينتظر حتى تتحول مدخراته إلى ثروة حقيقية، وفى هذه الحالة فقط عندما يبلغ غايته فإنه يترك عملية التزييف. كان هذا هو المنهج الذى وضعه لنفسه.

ونقلا عن خبراء الانتربول. فقد أكدوا أنه من النادر أن تجتمع لرجل كل هذه القدرات فى تزييف النقود، خاصة أنه من المستحيل أن يعمل المزيف بدون «مساعدين». فلابد له على الأقل من رسام ونقاش وعامل أكلاشيه وعامل طباعة، هذا غير عدد يتولى تصريف تلك النقود المزيفة.

ولم يكن هناك فى العالم، وبالذات فى عام ١٩٥٠، سوى ثلاثة فقط يصنعون هذا النوع من الورق الذى يتخدم فى صناعة العملات، فالحصول على هذا النوع من الورق مستحيل، إذ أنه يباع تحت حراسة مشددة مثله مثل احتياطى الذهب

ولتصنيع هذا النوع من الورق، فلابد من أدوات ضخمة أو مطبعة قادرة على تحقيق الأشكال الدقيقة.

خاصة أن هذه النقود يتم تسجيلها بالبنوك الفرنسية، وتوضع فى عجينة الورق خلايا كهروضوئية ويتم فرز ٢٥٠٠ ورقة فى الساعة، ويتبين لنا من ذلك أن تزييف النقود عمل يقوم به لصوص يتمتعون بوسائل عظيمة ومنظمة. هذا من ناحية الصناعة، أما طريقة تصريفها، فيتولى هؤلاء المزيفون عمليات واسعة محددة ومحكمة، فيصنعون فى كل مرة، كميات من النقود المزيفة، ثم يتخلصون منها بأسرع ما يمكن. وكان الخطر الحقيق فى إغراق السوق بتلك العملات المزيفة، ويتم ذلك عن طريق عملاء كثيرين ينتشرون فى أنحاء مختلفة.

أما فى حالة هذا المهندس فقد اختلف الأمر، فهو رجل يعمل بمفرده وينتج على نطاق ضيق، لذا الخطر الوحيد الذى يهدده هو الاستمرار.

وكان الرجل يتبع نظاما لرواج أوراقه المزيفة، فكان فى المتوسط ثلاث مرات فى العام لبنوك فرنسا. وفجأة اكتشف البوليس الفرنسى وجود عملات مزيفة من فئة الألف فرنك من تلك التى يصنعها المهندس بنفسه..

لم يكتشفوا مصدرها، فقد نجح الرجل فى عام ١٩٥٣ فى تقليد العملة من فئة الخمسة آلاف فرنك بإتقان فنى ومهارة شديدة، حتى إن البوليس الخائف قدر عدد المشتركين فى هذه الصناعة، بما لايقل عن اثنى عشر رجلا.

ولكن المهندس كعادته كان يحلم لقاعدته الذهبية، فكان ينفق نقوده المزيفة واحدة واحدة، وفى أماكن متفرقة. وأصبح مفهوما لدى البنوك الفرنسية أنه لايمكن أن يعرف الجمهور أويكتشف هذا التزييف. فالناس يفضلون عادة الكتمان أو السكوت، مرحبين بأى نقود تقدم لهم. وبالرغم من كل شئ فقد اعتمد البنك على مهارة وديناميكية المدير «برتو» الذى قاد حملة واسعة لمقاومة هذا التزييف، حتى يضع حدا لهذه التجارة.. ولكن مرت السنون والمهندس مستمر فى حذره.

وأخيرا فى عام ١٩٦٣ أصدر بنك فرنسا عملة جديدة لايمكن تقليدها. وهى الورقة من فئة المائة فرنك، التى تحمل صورة «نابليون بونابرت»..

أما الوانها المركبة فكانت عنصر الأمان والطمأنينة. ومع ذلك نجح المهندس الفنان فى تزييف تلك العملة الجديدة، وأتقنها إلى درجة أنها كانت أكثر دقة من العملة الأصلية.

وبالفحص المركز اتضح للمخبر «برتو» أن الورقة لاتحمل سوى أربعة أخطاء فقط، وهى أخطاء بسيطة للغاية لايمكن أن يلاحظها الا المتخصصون.. باستعمال عدسة معينة. ولتصريف هذه النقود المزيفة الجديدة اتبع الرجل نفس الأسلوب فى الحذر والحرص.

ومع ذلك وفى أكتوبر عام ١٩٦٣، أى بعد أحد عشر شهرا من صدور العملة الجديدة. لاحظ أحد موظفى بنك فرنسا أن أمامه مجموعة من النقود تحمل صورة بونابرت.. ورقم كاملة تحمل نفس الرقم.

وعلى الفور أجرى الأنتربول تحرياته، واتضح أن هذه النقود أودعت فى مجموعات، عن طريق مكتب بريد استلمها من مسافر فرنسى وبما أن الصادق كانت قد امتلأت برجال البوليس، فقد تم العثور على ذلك المسافر الفرنسى فى برلين، وشرح كيف إنه حصل على هذه النقود من مكتب بريد فى باريس على هيئة مدفوعات بحوالة بريدية.

وتأكد المخبر «برتو» أن البنوك الفرنسية لن تسكت هذه المرة. فلم يعد مهما أن تعرف الصحافة الخبر، خاصة أنها لن تفوت هذه الفرصة.. وأخيرا وضع المخبر يده على دليل قوى: مجموعة واحدة تحمل نفس الرقم المسلسل.. وهذا يعنى أن التوزيع قد تم هذه المرة بالجملة، وبناء على ذلك وضعت مكاتب البريد تحت الحراسة المشددة.

وفى جرس التليفون فى يوم ١٧ يناير عام ١٩٦٤ بمكتب المأمور «برتو».. فقد تم العثور على أحد المشوهين. وبعد لحظات كان المأمور بنفسه داخل سيارته، عندما لمح رجلا غريبا يسير فى شارع فرانسواه الأول. وكان الرجل يضع يديه فى جيوبه، رافعا ياقة سترته حتى عينيه من شدة البرد.. وقال أحد رجال البوليس: لقد أودع نوتا فى مكتب البريد مجموعة من عشر ورقات مزيفة.. وكان من السهل معرفة اسم الرجل وكان روسى الجنسية.

ورغما عنه قال المأمور بصوت حانق: «يالله من غبى! لو أنفق ورقة واحدة

من هذه النقود ، ماكان البوليس خلفه اليوم . . » ثم دخل الرجل منزلا ليخرج منه بعد ساعة وهو يحمل حقيبة جلدية . . وبمجرد أن عبر الشارع وضع المأمور يده على كتفه .

وشحب وجه الرجل ، لكنه لم يأت بحركة واحدة ولم يحاول حتى الدفاع عن نفسه . وفى الشارع على الرصيف ، فتح المأمور الحقيبة فإذا بها مليئة بالأوراق المزيفة . عملات من فئة المائة فرنك . وأخرج المأمور عدسته وفحصها بدقة ، وتأكد بالفعل أنها كلها مزيفة .

لم يستطع الرجل الإنكار ، فاعترف على الفور أنه حصل عليها من زوج شقيقته . ونظر إليه المأمور « برتو » باستخفاف ، إذ كيف يكون زوج شقيقته قادرا على صنع هذه النقود بنفسه ، وبعد استجواب ، تبين أن الرجل يشترى هذه العملات المزيفة بالجملة ، فيشترى الورقة من فئة المائة فرنك بحوالى ٦٥ فرنكا فقط .

ورفض الرجل أن يدلى باسم البائع . . لكنه لم يصمد كثيرا ، فعندما وضع المأمور يديه على أجندة صغيرة بها أرقام تليفونات وعناوين . وراح يقرؤها بصوت مرتفع ، حتى نطق اسم المهندس الفنان . . شحب وجه الرجل وأحد يتصبب عرقا .

كان المهندس زميل حرب ، وكانا صديقين عاشا معا لحظات صعبة بين الحياة والموت ، وعلى الفور اتجه المأمور إلى عنوان المهندس . وتجمعت سيارات البوليس فى سرية تامة فى ضواحى باريس ، وتأكد المأمور من أن سلاحه فى مكانه . . ثم دق جرس باب الفيلا المتواضعة رقم ٣٣ ، ليفتح له رجل أشد تواضعا .

وبعد أن تأكد المأمور من شخصية المهندس ، أبلغه أنه متهم بترويج النقود ، وأنه يلقى القبض عليه ، وراح المأمور يتأمل المكان حوله . . وظهرت الزوجة ثم غلامان فى السادسة عشرة والثامنة عشرة من عمرهما . . وبدا كل شئ داخل المنزل منظما ، كما كانت المائدة معدة فى حجرة الطعام . ولاشئ هناك من بعيد أو قريب يوحى بصنع العملات المزيفة . فلا أوراق مثبتة فى حبوط ولا آلة كبس باليد ، ولا أدوات . . لاشئ من هذا القبيل : مجرد بيت هادئ لمهندس بسيط . . وكانت هناك فرصة أمام الرجل للإفلات ، لولا أنه ارتكب حماقة أو خطأ نفسيا . . فبدون أن يشعر قال :

« لا أعرف ماذا تريد يا سيادة المأمور . ولكن هل يمكن أن تكلل زوجتى والأولاد طعامهم ؟ . فلا داعى لاقحامهم فى مثل هذه الأمور . »

وقاد المهندس المأمور إلى الصالون . . وهنا فكر المأمور بسرعة : لو كان هذا الرجل بريئا لدافع عن نفسه على الفور . ولما قال إنه يريد إبعاد زوجته وأولاده عن تلك الأمور . . وكان الأولى به أن يقول إن هناك خطأ ما ، وسوف يتضح هذا الخطأ بعد دقائق . . وبدلا من هذا اقترح على المأمور بأدب أن يجلس كما لو كان يعرف أن الحديث سوف يطول .

أخرج المأمور العملة المزيفة ، فأنكر الرجل قائلا انه لا يعرف شيئا عنها . . ولكن المأمور « برتو » أمر بدخول المحررين وتفتيش المنزل واستمرت عملية التفتيش أربع ساعات متواصلة ، من الاستجواب المتصل . . ولكن بلا فائدة .

ثم فجأة لاحظ أحد رجال البوليس أن مشمع أرضية المطبخ مثبت بطريقة لافتة ، تبعث على الشك . فهناك قطعة مستطيلة وضعت عليها شواية كهربائية . ورفع رجل البوليس الموقد ثم مشمع الأرضية ، فإذا بقبضة من الحديد تظهر . . وقال المهندس : « إننى مهندس ، وهذا هو المعمل السرى الذى أقوم فيه بأعمالى » .

وعندما رفع المأمور « برتو » القبضة ظهر سلم خشب أتوماتيكى يوصل إلى معمل صغير ، مساحته حوالى خمسة أمتار مربعة ، وعثر المأمور على لوح مجفف عليه ثلاثون ورقة من فئة المائة فرنك ، ولم يبق أمام المهندس الا أن يكشف سر صناعته التى يفخر بها :

الأدوات التى يستخدمها هى عبارة عن آلة كبس باليد ومجفف وميكروسكوب . وكل هذه الأدوات صنعها بنفسه ، وملح المأمور انابيب من اللب المركز ، والتى يجفى بداخلها بعض الأحبار الدسمة . وهى الأشياء الوحيدة التى يشتريها مع ورق السجائر الذى يخلطه بورق الكالك . . هذا مع قليل من ماء المطر . وبهذه الطريقة البسيطة يصنع ورق النقود السرى . . إنها عملية شاقة استغرقت منه شهورا طويلة حتى أتقنها . أما لكى يحصل على الشكل الدقيق فكان يترك عجينة الورق تجف على لوحات من النحاس تحمل النقوش والصور المطلوبة . . وأمام خلاط يترك هذه النقود تجف .

ورغما عنه لم يستطع المأمور « برتو » إخفاء إعجابه . فكان يعلم أنه لكى تبدو النقود المزيفة قديمة ، فإنها ادق وأصعب العمليات التى تواجه المزيفين . ولمواجهة هذه المشكلة فقد وجد المهندس وسيلة رائعة : استخدم خلاطا قام بتطويره بنفسه . ووضع النقود بداخله ، ثم تركها تلف لعدة ساعات ، ثم أضاف عليها قليلا من رماد السجائر وبعض الرمال الشفافة . . وبذلك يحصل على صقل لايمكن تقليده .

كما عثر المأمور فى درج صغير على ٢٢٠ مليون قطعة مزيفة فى مجموعات موضوعة بعناية ، وزع منها المهندس طيلة هذه السنوات حوالى ٥٠ مليونا ، وأثناء إلقاء القبض عليه فى يناير عام ١٩٦٤ كانت مدخراته قد بلغت من القطع الذهبية حوالى ٧٠ مليونا أى ٧٠٠٠٠٠ قطعة جديدة .

ونظر المأمور للمهندس بدهشة ، فأساليبه تدل على نوعية العمل نفسه . . فلو كان استمر فى العمل بمفرده ، كأب هادئ تخصص فى هذه الصناعة . . ما قبض عليه أبدا ، خاصة أنه استمر فى هذا العمل ثلاثة عشر عاما دون أن يشك فيه أحد . . ثلاثة عشر عاما أحس فيها بالأمان الكامل . وكان المهندس يعلم أنه مصاب بمرض خطير فى العظام . لذلك أراد أن يسرع فى تأمين أسرته ، ويوفر لها المدخرات . وكان فى حاجة لأن ينجح فى خبطة لا مثيل لها . . كان فى حاجة لأن يثأر من الحياة نفسها . . إنه الانتقام من الحياة بالتفوق على المرض .

وقد حقق المهندس هذا الانتقام : حققه عندما احتل ملفه مكان الصدارة فى أرشيف الأمانة العامة للأنتربول ، حيث تجمع نماذج العملات المزيفة فى العالم كله . . .

وهذا يعنى أن المهندس الفنان يساوى حوالى ١٠ ملايين من العملات القديمة ■

تصميم محمد ابراهيم